"سيرتي الذاتية" لسارتر

عرض وتلخيص كمال عطية

« كنت مسافرا سريا ، فنمت على مقعد القطار ، وكان المراقب يهزني : تذكرتك ! وكان علي ان اعترف باني لا املك تذكرة ، ولا مالا لادفع فورا اجرة السفر .وكنت قد بدأت ارافع على اني مذنب : كنت قد نسيت هويتي في البيت ، بل لم اكد اذكر بعد كيف خدعت رقابة قاطع التذاكر ، ولكن كنت اقر اني دخلت القاطرة بصورة مغشوشة ».

« سارتر »

***

مع بداية هذا العام اصدرت دار « الاداب » ترجمة عربية لاحدث ما خطه قلم الفيلسوف والاديب الفرنسي « جان بول سارتر » ، وهو الجزء الاول من كتاب «سيرتي الذاتية » الذي يحمل عنوان « الكلمات » (1) .. ولقد استطاعت « دار الاداب » ان تنشر الطبعة العربية ، قبل الطبعة الفرنسية لهذا الكتاب الرائع الذي يتناول حياة الكاتب الفرنسي منذ ولادته حتى بلوغه الحادية عشرة من عمره .. واذا كان الكتاب يقتصر على فترة زمنية معينة ، فان سارتر يحكي لنا فيه مرحلة طفولته المبكرة وكيف اتيح له ان يتعلم « القراءة » اولا ، ثم الظروف التي دفعته بعد ذلك الى تعلم « الكتابة » ومحاولاته الاولى فيها.. وهو يخضع تلك المرحلة بكل ما فيها من احداث وملابسات لتجارب الشيخ الذي تجاوز الخمسين ولافكاره واتجاهاته وفلسفته ، حيث يعطي لتلك الاحداث دلالات فلسفية تنبع من نظرة المفكر المكتمل الناضج وليس من نظرة الطفل الذي كانه في تلك الايام البعيدة ..

فنحن نستطيع أن نرى من خلال سطور الكتاب كل ما يتضمنه الفكر الوجودي السارتري من مثالية ذاتية مقنعة ، وكل ما يحتويه القاموس الوجودي من معاني اليأس والتوتر والفزع والالحاد والعدمية واللاجدوى واللاغاية ، ثم نستطيع ان نرى الخطوط العامة لقضية الوجودية الاساسية وهي حرية الانسان .. حريته في ان ييأس ويلحد ويتوهم ويختار طريقه ويحدد قيمه على اساس من سلوكه الفردي وحده ، وحريته في الا يتقيد باية مبادىء او افكار سابقة على تجربته الذاتية ، وانما عليه ان « يختار » وينطلق فيما اختار الى اخر الشوط لكي يحقق وجوده وذاته ..

وسارتر لا ينسى ان يرسم لنا من خلال سيرته الذاتية ، صورة حية للمجتمع الفرنسي في بداية هذا القرن ، والمناخ الثقافي والاجتماعي الذي نشأ وتربى في احضانه بحيث نلمح بوضوح انعكاسات ذلك المناخ وتأثيره في تشكيل الطفل الذي اصبح فيما بعد مفكرا حاول طوال حياته ان يفلسف الادب وان يؤدب الفلسفة .. الطفل الذي بدأ حياته يتيم الاب محررا من السلطة ، ثم كان عليه بعد ذلك ان يكافح طويلا من اجل ان « يختار » طريقه ومن اجل « خلاصه » ...

ففي عام ١٩٠٤ التقت في مدينة « برست » الفتاة الجميلة « آن ماري » صغرى ابناء « شارل شوايتزر » معلم اللغة الالمانية في الالزاس، بضابط البحرية الشاب « جان باتيست » الذي كان قد عاد الى وطنه بعدما اصابته الحمى في الهند الصينية .. وتزوجت الفتاة الجميلة التي كانت اسرتها المتزمتة تحرمها من الاحساس بجمالها من الضابط المحموم الذي انحدر من طبيب ريفي ، وانتج هذا الزواج طفلا ، كان هو «جان بول سارتر» الذي استقبل اولى نسمات حياته في عام ١٩٠٥..

وظل الزوج يعاني وطأة المرض والامه حتى مات بين يدي زوجته الصغيرة بعد بضعة اشهر من مولد طفلهما ..

« وعادت الارملة الشابة لتصبح قاصرة : عذراء ذات لطخة » .. عادت الى اسرتها لتواصل حياتها الاولى ، مهملة مجهولة ، لا احد يهتم بها ، وليس في مقدورها الا ان تلزم الهدوء والصمت وان تتقبل قسوة ابيها وتزمته ..

ولقد كان موت جان باتيست هو القضية الكبرى في حياة الطفل « ذلك انها ردت امي الى اغلالها ، ومنحتني الحرية .. » ولكنه مع ذلك يتساءل « أكان ذلك خيرا ام شرا ؟ لست ادري ، ولكني اقر طوعا حكم عالم نفس تحليلي باني : ليس لي « انا فوقية » .

وعلى الرغم من ان الموت الخاطف لم يتح للطفل ان يتعرف الى الرجل الذي منحه شعاعة الحياة على هذه الارض ، الا انه يعطينا صورة سريعة لهذا الاب الذي مضى بغير استئذان ، حيث يقول « وقد استطعت طوال عدة سنوات ان ارى فوق سريري صورة ضابط قصير ذي عينين بريئتين ، ورأس مستدير اصلع ، وشاربين كثيفين ، وحين تزوجت امي للمرة الثانية اختفت الصورة .. »

واذن فقد عاد الطفل مع امه الشابة الجميلة ، ليرقبها وهي تنام وحدها ثم تستيقظ بطهارة لتأخذ حمامها ، وليتساءل بينه وبين نفسه .. كيف اكون قد ولدت منها ؟ .. بينما كانت هي تنظر اليه في حنان وتهمس .. سيكون حبيبي الصغير لطيفا ، وعاقلا ، وسيتركني اقطر له في انفه بكل لطف .. اما جده شارل شوايتزر فقد كان عجوزا يبالغ في طلب النبالة ، ويحسب نفسه فكتور هوجو ، وكان يحنو كثيرا عليه ويحس بانه الشيء الهام الذي « يملكه » وانه « اعجوبته » الذي يملأ حضوره بالبهجة والحيوية .. وكان يحرص دائما على ان « يلقنني واجباتي المدنية ويروي لي التاريخ البرجوازي ، لقد كان ثمة ملوك وأباطرة ، وكانوا شريرين جدا ، وكانوا قد طردوا ، وكان كل شيء يجري على ما يرام » ..

وفي ذلك الجو الاسري الهادىء الرتيب الذي كانت تمضي فيه حياة الطفل ، لم يعرف معنى الحقد ولا العنف ولا الحسد ، فعلى الرغم من انه لم تكن له « انا فوقية » الا انه لم يكن مع ذلك يسلك سلوكا عدوانيا.. كان الموت قد انقذه من الخضوع للسلطة الوالدية ، وكانت امه ملكا خالصا له ولا احد ينكر عليه امتلاكها ، وكان جده « يعبده » ويعطيه من الحب والاهتمام ما يفيض على حاجته « فعلى من ، وضد من ، كان عساي ان اتمرد ؟.. انه لم يحدث قط ان انتصب هوى انسان اخر قانونا لي » .

ولعل ذلك هو المصدر الذي نبع منه نفور سارتر فيما بعد من السلطة المدنية ومحاولته الدائمة للابتعاد عنها وتحديد مكانه منها « فلا تحت ، ولا فوق ، بل في مكان اخر » ..

ـ التتمة على الصفحة ٥٩ ـ

(1) ترجمة الدكتور سهيل ادريس .

((سيرتي الذاتية))

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٦ ـ

ولم تلبث اسرة الطفل ان انتقلت في عام ١٩١١ لتقيم في شارع ((لوغوف)) بباريس حيث افتتح جده معهدا لتعليم اللغات الحية حتى يتمكن من اعالة اسرته .. وفي باريس بدأ وعي الطفل ابن السادسة يتفتح وسط مكتبة جده التي لم يكن التراب ينفض من فوق كتبها الا مرة كل عام .. ومع ان الطفل لم يكن في ذلك الوقت يعرف القراءة الا انه كان يشعر برغبته في ان تكون له ((كتبه)) الخاصة ، مما جعل جده ((يقصد ناشره النذل ويجلب من عنده ((حكايات)) الشاعر موريس بدشور ، وهي حكايات مقتبسة من الفولكلور ومكتوبة للاولاد بقلم رجل يقول انه ظل محتفظا بعيني طفل)) ..

وكان على امه ان تقوم له بدور القارىء لهذه الحكايات التي كانت تجذب انتباهه حتى يغيب فيها ، ولكنه بمضي الوقت سئم الجلوس الى امه والاكتفاء بمجرد الاستماع اليها وعزم على ان يسلبها دورها .. واستولى على كتاب ((مصائب صيني في الصين)) حيث كان افراد اسرته يفاجئونه كثيرا وهو يحاول قراءته مرة بعد اخرى حتى اقتنعوا اخيرا بان الوقت قد حان لتعليمه الابجدية .. ((وتحمست كطالب العماد ، بل ذهبت حتى الى اعطاء نفسي دروسا خاصة : كنت اتسلق سريري القفصي ومعي ((بلا اسرة)) لهكتور مالو ، الذي كنت احفظه عن ظهر قلب ، فاقرأ مرة ظاهرا ، ومرة محاولا ان احل الالغاز ، حتى تصفحت جميع الصفحات ، الواحدة تلو الاخرى : وحين قلبت الصفحة الاخيرة ، كنت اعرف القراءة ..)) .

ومنذ اللحظة التي اصبح فيها بمقدور الطفل ان يقرأ ، بدأ رحلاته الطويلة عبر مؤلفات ((فونتفيل ، وارسطوفان ، ورابليه))وغيرها من الكتب الكلاسيكية الفرنسية والالمانية التي كانت تزخر بها مكتبة جده العجوز .. وكان اكثر ما يتعشقه سلسلة ((هيتزل)) المسرحية التي يقول عنها ((انا مدين لهذه العلب السحرية ـ لا لعبارات شاتوبريان المتأرجحة ـ بلقاءاتي الاولى مع الجمال)) .. ولقد تعرف الطفل على العالم المحيط به من خلال ((الافكار)) التي تضمنتها الكتب قبل ان يلتحم به التحاما واقعيا، حيث كان يلتقي في صفحاتها بالكون ((متمثلا ، مصنفا ، مدفوعا ، مفكرا به ، مخيفا بعد ، ولقد خلطت اضطراب تجاربي الكتبية بالمجري الاتفاقي للاحداث الواقعية . من هنا مصدر تلك المثالية التي انفقت ثلاثين عاما للتخلص منها ..)) .

على ان تلك الكتب لم تكن هي وحدها في الحقيقة المسئولة عن التكوين الفكري المثالي للطفل ، وانما كان شارل شوايتزر ، الجد العجوز ابن الكاهن الكاثوليكي السابق ، مسئولا ايضا عن تلك المثالية بما كان يفرضه على حفيده ـ الذي يعيش طفولته فيما بين الثورة الروسية الاولى واول حرب عالمية ـ من افكار ترجع الى عهد لويس فيليب ..

وفي ذلك الوقت عزم الجد على الحاق حفيده بالمدرسة،فاصطحبه ذات صباح الى ((ليسيه مونتاني)) حيث قابل المدير واخذ يمتدح له مزايا الطفل الذي لم يكن يعيبه شيء على الاطلاق سوى ان عقله يتقدم على سنه ((اكثر مما ينبغي)) .. وادخل الطفل الى الصف الثامن ، الا انه بعد المسابقة الاولى في الاملاء ، استدعي جده لمقابلة المدير الذي افهمه ان الطفل مكانه في الصف العاشر ، ولكن العجوز اغضبه ذلك فتخاصم مع المدير وسحب حفيده من المدرسة في اليوم التالي ، بعد ان عنفه واتهمه بسوء النية ..

ومرة اخرى قامت امه في الخريف التالي بالحاقه في ((معهد بربون)) ، ولكنها عادت وسحبته منه بعد ستة اشهر بحجة ان الاطفال لم يكونوا يستفيدون منه شيئا ، وقبلت ((ماري لويز)) احدى مدرسات المعهد ان تعطي للطفل دروسا خاصة في البيت .. وبرغم انه كان يشعر بالحب نحو هذه الفتاة العانس ويأنس اليها ، فانها لم تستطع ان تستمر في عملها ، حيث كان جده يعتقد انها حاملة شؤم ومصائب . ((ووجد لي شارل شوايتزر اساتذة اكثر حشمة . اساتذة من شدة الحشمة حتى اني نسيتهم جميعا . والى العاشرة من عمري، بقيت وحيدا بين عجوز وامرأتين ..)) .

وفي السابعة من عمره لم يكن ((سارتر)) الطفل يحس بوحدته فقط ، وانما كان يحس بالفزع والرعب ويشعر كما لو كان يلتقي((الموت)) في كل مكان .. كان يشعر بلا جدواه العميقة ، وبانه زائد على اللزوم.. مجرد طفل ((اعجوبة)) ينتمي الى ميت مضى منذ زمان بعيد ولسوف يتبعه هو ايضا عندما ينتهي دوره في تلك المهزلة العائلية التي يشارك في تمثيلها .. كان حفيد الكاهن السابق يرى شفف الجميع به ،ويرى في الوقت نفسه انهم جميعا يردونه حيث لا ملجأ له الا في داخل ذاته التي لم تكن قد وجدت بعد.. فلا احد يريده او يطالب به حقيقة .. وهو يشعر بانه مجرد تفتح تافه في حالة تلاش دائم .. قلق حائر لا يعرف مكانه ولا يعرف ما الذي يريده وسط تلك الاسرة التي تعيش حياة مزيفة تختلف في ظاهرها عما يجري عليه واقعها الحقيقي .. حتى الايمان الذي كان جده يتظاهر به لم يكن الا زيفا تكشف عنه السخرية التي كان يتحدث بها خفية عن القساوسة ورجال الدين .. ولعل ذلك كان مصدر الاسف العميق الذي يبديه سارتر لانه تربى وسط ذلك الجو الديني المزيف الذي ادى به الى الالحاد .. ((لقد كنت بحاجة الى الله ، فاعطوني اياه ، وتلقيته من غير ان افهم انني كنت ابحث عنه . ولانه لم يأخذ جذرا له في قلبي ، فقد نبت في بغموض فترة من الزمن ثم مات . وحين يحدثونني عنه اليوم ، اقول بلهجة تسلية غير اسفة شبيهة بتلك التي يستعملها كهل جميل يلتقي جميلة قديمة : منذ خمسين عاما ، لولا سوء التفاهم ذاك ، ولولا تلك الغلطة ، ولولا الحادث الذي فصل بيننا، لكان بالامكان ان يكون بيننا شيء ما))..

وفي ذلك الوقت ، حوالي عام ١٩١٢ او ١٩١٣ ، قرأ ذلك الطفل الحائر القلق اللامنتمي ، رواية ((ميشيل ستروجوف)) ثم صاح وهو يبكي فرحا ((اية حياة نموذجية ! ان ذلك الضابط لم يكن بحاجة لكي يظهر قيمته ، ان ينتظر رغبة اللصوص : ذلك ان امرأ من عل كان قد انتزعه من الظل ،فكان يعيش ليطيعه ، ويموت انتصارا له ..))

ولكنه عندما اعاد قراءتها مرة اخرى بعد ثلاثة شهور ، لم يشعر بحبه ولا باعجابه الاول لذلك البطل المثالي الذي بهرته حياته النموذجية .. صحيح انه كان يحسده على قدره ، وكان يعبد فيه ((المسيحي)) المقنع الذي كان هو قد حرم ان يكونه ، ولكنه في الوقت نفسه كان يرى فيه ((مختارا)) وهو يكره المختارين ، وينفر من القداسة ، ولو لم تكن قداسة ((ميشيل ستروجوف)) قد اتخذت مظهر البطولة الخارجية لما اثارت في نفسه اي اعجاب بها ..

وليس حديث سارتر عن تلك الفترة من حياته قاصرا على مجرد الكيفية التي تعلم بها القراءة ، او عن الكتب التي اعجبته والكتب التي اعتبرها ((سما)) بالنسبة اليه ، وانما هو يحدثنا كذلك عن انطباعاته ((الطفلية)) حول السينما الصامتة والمسرح ، حيث كان يرى في السينما مجرد صالات مظلمة يجتمع فيها الناس من عامة الشعب دون تمييز بينهم ليشاهدوا ابطالا صامتين يتحركون امامهم على الشاشة المضيئة ، بينما كان المسرح هو المكان الملائم للنخبة من ((المثقفين)) ، وهو المكان الذي يحترم مستويات المشاهدين فيخصص لكل فئة منهم مكانا يتناسب ومستواها وثقافتها ..

وثمة اشياء اخرى في تلك الفترة كانت تثير في نفسه قلقا ، وتعمق من احساسه بالعزلة .. فحين كان يرى الاطفال الذين في مثل سنه يلعبون ويمرحون في حدائق اللكسمبورج ، بينما يجلس هو قريبا منهم يتحرق شوقا لمشاركتهم دون ان يفكر احدهم في دعوته ، كانت امه تحس بما يعانيه بصبر نافذ ((ما الذي تنتظره ايها الساذج الكبير !

اسالهم هل يريدون ان يلعبوا معك ؟ » ولكنه كان يهز رأسه بالنفي محافظة منه على كبريائه ..

لقد كانت أعماقه تتمزق بين رغبته في الاندماج معهم ومشاركتهم ، وبين احساسه المتضخم بذاته الذي يمنعه من المبادرة لتحقيق رغبته .. وكان ذلك يؤدي به لان يصيح في مرارة « كنت اعيش حياتين كلتاهما كاذبتان . كنت أمام العموم كذابا : الحفيد العظيم لشارل شوايتزر الشهير ، ووحيدا ، ادوم في عبوس وحرد خياليين » ..

✶

تلك كانت قصة « القراءة » التي كان على الطفل الاعجوبة ان يقطع اليها شوطا طويلا حتى يتعلمها .. ولقد آن الاوان لان يتعلم « الكتابة » ويحاولها ..

وقد حدث ذلك فعلا وهو يخطو في عامه السابع ...

كانت الاسرة تنتقل كل صيف الى « اركاشون» بينما يبقى الجد في باريس ، يكتب الى حفيده رسائل شعرية كل اسبوع ، وكان عليه ان يرد عليها برسائل اخرى من الشعر .. ولقد ساعدته امه في ذلك ، بينما اهداه جده معجما للقوافي .. ولكنه لم يكن موهوبا فيالشعر ، وانما كان يكتبه تقليدا للكبار ، ويكتبه بصفة خاصة لانه حفيد شارل شوايتزر !! .. فقد انتهى عهده بكتابة الشعر سريعا عندما عزم على ان يعيد كتابة خرافات لافونتين حسب قواعد الشعر الاسكندري « وكان المشروع يتجاوز قواي ، وحسبت أني الاحظ انه كان يثير الابتسام : وكان ذلك اخر تجربة شعرية لي » ..

الا ان الطفل كان قد انطلق ولم يستطع ان يكف عن الكتابة،فانتقل من الشعر الى النثر .. واحضرت له اسرته زجاجة من الحبر البنفسجي ودفترا كتب على غلافه « دفتر الروايات » ثم بدأ في كتابة روايته الاولى « من اجل فراشة» » .. تلك الرواية التي سرق احداثها واشخاصها وحتى عنوانها من رواية اخرى ظهرت في تلك الفترة ..

وكان ذلك بداية لاهتمام الاخرين به ، فقد بذلت له امه تشجيعا كبيرا ، واهداه خاله الة كاتبة صغيرة لم يستعملها ! واغدق عليه اصدقاء اسرته تمتمات اعجاب لا حد لها ، وقامت أمه بكتابة روايته الثانية « بائع الموز » على ورق لماع بحيث يمكن ان تتداولها الايدي .. بينما كان جده يبدي فتورا فيمايتعلق بمحاولاته في الكتابة ، فحين كانت امه تقدم اليه دفتر الروايات معجبة ، كان يزيحه بيده او يلقي عليه نظرة لمجرد تسجيل ما به من اخطاء املائية ..

الا ان هذا الموقف من جانب جده ، لم يمنعه من الاستمرار ، وان كان في هذه المرة اقل سرقة من ذي قبل .. فقد اخذت رواياته تتعقد وتدخل فيها احداث متنوعة .. كان يريد ان يؤصل رواية المغامرات ، فبدأ يضيف اليها مزيدا من الشطحات الخيالية التي تتركز كلها حول البطولة الفردية الخارقة ، حول البطل الاسطوري الذي يستطيع وحده ان يهزم جيشا برمته « واحد ضد الجميع : كانت هذه قاعدتي،فليبحث عن مصدر هذا الحلم الكئيب العظيم في الفردية البرجوازية الطهرية التي كانت شائعة في وسطي .. » .

ولم يكن سارتر في ذلك غريبا ولا شاذا عن المناخ الادبي المحيطبه، وانما كان ما كتبه في تلك الفترة نتاجا طبيعيا منعكسا عن واقع الازمة التي كانت تعانيها الروح الاوروبية ، فقد كان الغرب يموت اختناقا في ذلك العهد .. « كانت البرجوازية ، لعدم وجود اعداء مرئيين ، تلتذ بان تخيف نفسها من شبحها ،وكانت تستبدل بسأمها قلقا موجها. كان الحديث يجري عن استحضار الارواح والتنويم المغناطيسي ... وكانت الموضة الشائعة هي موضة الحكايات الخيالية الغريبة .. » .

ولقد كتب سارتر عددا من هذا النوع الاسود من روايات المغامرات الفردية الهمجية ، بعضها كان مكتملا ، وبعضها ناقصا ،والبعض الاخر كان يعيد كتابته تحت عناوين اخرى .. ولكنها فقدت كلها «واقول لنفسي احيانا ان هذا مؤسف : فلو كنت قد تنبهت الى وضعها تحت القفل والمفتاح ، لكشفت لي طفولتي » ..

ورغم تفاهة الاعمال التي كان ينتجها سارتر في ذلك الوقت،ورغم ادراكه انه لم يكن سوى « نشاط بلا محتوى » ، فانه من خلال ذلك النشاط كان قد نما اكتشاف نفسه ، وكان هذا في الحقيقة كافيا ، فلم تكن هناك حاجة الى اكثر من هذا ..

الا ان اسرته انتزعته فجأة من وسط هذا النشاط .. كان قد بلغ السن التي ينبغي فيها علىالاطفال البرجوازيين ان يحددوا موقفهم ويكشفوا عن ميولهم واتجاهاتهم ، وكان من المقرر سابقا ان يكون ابناء آل شوايتزر مهندسين مثل ابائهم .. ولكن السيدة « بلانش بيكار » صديقة الاسرة استطاعت ان تقرأ في جبين الطفل علائم اخرى حينهتفت « ان هذا الصغير سيكتب !! » ..

وانزعجت جدته لهذه العبارة ، بينما تأملته امه بحسرة ، خشية ان تتعقد الامور اذا ما عرف جده بذلك وان كانت لم تستطع ان تخفي فرحها لان رجلها الصغير سوف يكتب .. اما الجد العجوز فقد اكتفى بهز رأسه ، واستمر يتظاهر بتجاهل « الخربشات » التي كان يكتبها سارتر بينما كان يهمس لطلابه احيانا في الخفاء « انه يملك قابلية للادب » ..

كان الجد يرى ان الاشتغال بالادب لا يوفر الغذاء .. فقد كان هناك كتاب عظام ماتوا جوعا ، واخرون باعوا انفسهم لكي يأكلوا ..ولكن ذلك كله لم يثن عزم الطفل عن مواصلة الطريق الشاق .. وكما انه سار من قبل في طريق الالحاد من حيث ارادت له اسرته ان يمضي في الايمان والتدين : فقدحدث ذلك ايضا بالنسبة للكتابة « فقد قذفني في الادب من جراء العناية التي بذلها ليصدفني عنه » ..

صحيح انهم كانوا يقولون انه ليس موهوبا للكتابة ، وكل من يحيطون به قد عاملوه على انه طالب مجتهد اكثر مما هو ذكي ، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يغذونه بوهم كبير .. كانوا يرددون انه هبة من « السماء » لا غنى عنه لاحد .. وبذلك تضخم هذا الوهم في نفسه بحيث كان يتمنى ان يكون مينا او يكون (مطلوبا) من العالم كله .. الا انه يشعر في اعماقه بانه مطلوب .. وا نالناس ينتظرون انتاجه الذي لن يظهر الجزء الاول منه الا في عام ١٩٣٥ حسب تقديره .. « وحوالي عام ١٩٣٠ سيبدأ الناس بفقدان صبرهم ، وسيقولون فيما بينهم ان صاحبنا يتباطأ : ها قد انقضى خمسة وعشرون عاما ونحن نغذيه دون ان يفعل شيئا ! اترانا سنموت قبل ان يتاح لنا ان نقراه ؟.. وكنت اجيبهم بصوتي ، صوت عام ١٩١٣ : هيه ! دعوا لي الوقت لكي اعمل ! » ..

واذن فلم يكن الطفل هو الذي « اختار » نزعته ، وانما كانتقد فرضت عليه من قبل الاخرين ..ولكنه مع ذلك كان مقتنعا بما حدث « كان الاشخاص الكبار القائمون في روحي يومئون باصبعهم الينجمي، ولم اكن اراه ، ولكني كنت ارى الاصبع ، كنت اؤمن بالاشخاص الكبار الذين كانوا يدعون انهم يؤمنون بي » ..

ووسط الحيرة الشديدة التي كان يعانيها في تلكالفترة وهو يختار موضوعات كتاباته .. وهو يتلفت حوله بحثا عن حقيقة الناس والاحداث .. وهو يواجه « قدره » ويناضل من اجل ان « يختار » طريقه بنفسه لا ان يكون «مختارا» من قبل الاخرين .. وسط ذلك كله ، وبعد ما كاد ان يصبحمجنونا ، وقع له حادثان كان لهما اثر كبير في حياته ..

اولهما كان في تموز ١٩١٤ عندما اشتعلت نار الحرب العالمية الاولى .. ولم تكن هذه الحرب في بدايتها تثير في نفسه بغضا، كانت مجرد ازعاج بسيط .. ولكنه بدأ يحسها وينفر منها ويبغضها عندما بدأت تهدم مطالعاته ، فقد اختفت كتبه ومجلاته المفضلة ، وهجر « ارنولد غالدبين ، وجوفال ، وجان دولاهير » كتابة روايات المغامرات السابقة ، وتخلوا عن ابطالهم الفرديين الاسطوريين ، واخذوا يكتبون عن الحرب وعن البطولات الجماعية لجنود الجيش الجدد الذين يتم كل شيء خارجا عنهم ..

وكره سارتر ذلك اللون الجديد من البطولات ، فقد كان يتعرف ذاته في نماذج الابطال السابقين .. وفي تشرين الاول عام ١٩١٤ ، ولم تكن الاسرة قد غادرت « اركاشون » ، امسك بقلمه وعزم على ان يعطي لاولئك الكتاب درسا في كتابة الرواية .. وبدأ يكتب قصة الجندي « بيران » الذي يخطف « القيصر » ويعود به موقتا ، ثم يدعوه بحضور الفرقة المتجمعة الى مبارزة علنية ، حيث يفرض عليه ، والسيف فوق رقبته ، ان يوقع صلحا مهينا .. وبذلك خالف سارتر القواعد التي كانت ثابتة ودقيقة في كتابة الرواية ، عندما صور القيصر منهزما مغلوبا على امره ، ولكنه كان في الحقيقة يعبر عن تمنياته الذاتية .. كان يتمنى ـ في خياله بالطبع ـ ان يأمر القيصر المهزوم ـ الذي رسمه بقلمه ـ بوقف اطلاق النار، فتنتهي الحرب ويعود السلام..ولكنه اكتشف انه كان مخدوعا ، فكل من حوله ، الصحف والاشخاص الكبار يرددون صباح مساء ان الحرب مستمرة وستستمر طويلا ..

« وللمرة الاولى في حياتي ، قرأت ثانية ما كتبت ، والاحمرار يصبغ وجنتي ، لقد كنت انا ، انا الذي التذذت بتلك الشطحات الصبيانية ! ولولا قليل ، لعدلت عن امتهان الادب . واخيرا ، حملت دفتري الى الشاطىء ودفنته في الرمل .. » .

ولم يستطع سارتر بعد ذلك ان يغفر للكاتبين الانتهازيين « ارنولد غالدبين وجان دولاهير » انهما قد انتصرا عليه من حيث اراد هو ان يلقنهما درسا ..

اما الحدث الثاني فقد وقع في عام ١٩١٥ حين كان في الحادية عشرة من عمره .. فقد الحقه جده طالبا منتسبا في « ليسيه هنري الرابع » ، وفي المسابقة الاولى التي اشترك فيها كان ترتيبه الاخير.. كان تفوقه الذي يتوهمه يتعرض في ذلك الوقت لمقارنات مستمرة ، فيكتشف ان هناك باستمرار من يجيب افضل واسرع منه « كنت الاول الذي لا يضاهى ، في جزيرتي الهوائية ، وسقطت في الصف الاخير حين اخضعوني للقواعد المشتركة .. » . وكان ذلك يغيظ جده ويحنقه عليه ، مما اضطر امه الى ان تطلب مقابلة استاذه الاساسي بالمعهد .. واخذت الام تشرح لاستاذه الاعزب مزايا ولدها الذي تعلم القراءة وحده، والذي كان يكتب الروايات ، واهم من ذلك كله ، الذي ولد وعمره عشرة اشهر !! .. ولكن الاستاذ كان قد تأثر بجاذبية الام ولهجتها المغنية اكثر مما تأثر بمزايا الصبي ، فوعد بان يتابعه .. ونتيجة لذلك اصبح سارتر ، بلا جهد ، تلميذا جيدا بما فيه الكفاية ! ..

وعلى الرغم من ان الاعمال المدرسية قد منعته من الكتابة ، فان « المدرسة » قد اتاحت له صداقات جديدة انسته حتى رغبته في الكتابة .. « لقد كان لي اخيرا رفاق : فمنذ اليوم الاول ، وبصورة اكثر ما تكون طبيعية ،تبنوني ، انا مطرود الحدائق العامة » ..

وكان ذلك امرا رائعا .. فقد مضت ايامه السابقة متشابهة تماما الى درجة انه كان يتساءل عما اذا كان محكوما عليه ان يتقبل هذا التكرار السرمدي لايامه ، بينما كان يشعر في اعماقه بعكس ذلك .. كان يحب المفاجآت ويرحب بها ، ويجتهد في ان يحول النزعة التطورية الهادئة التي زرعها المجتمع البرجوازي في نفسه الى نزعة كوارثية ثائرة ومتقطعة ، « ولقد نبهوني منذ اعوام الى ان شخصيات مسرحياتي وروایاتي يتخذون قراراتهم بصورة مفاجئة ، وفي الازمة ، وانه كانت تكفي لحظة مثلا لكي ينجز « اورست » تحوله ، عجبا : ذلك اني صنعتهم جميعا على صورتي ، لا كما انا ، بلا شك ، بل كما احببت ان اكون » .

*

تلك كانت بداية الطريق الطويل في حياة الطفل الذي عرفه عالم الفكر والادب فيما بعد باسم « جان بول سارتر » .. لقد اصبح الطفل مرة اخرى ، كما كان في السابعة ، المسافر الذي لا يحمل تذكرة..ولكن المراقب في هذه المرة نظر اليه نظرة اقل قسوة من ذي قبل ، ولم يطلب منه شيئا ، وانما كان يريد فقط ان يتركه ينهي رحلته في سلام ..

واذا كان « المسافر » قد ظل بدون تذكرة ، وبدون مال يمكنه من دفع اجرة التذكرة ، فان شيئا ما لا بد قد حدث خلال الطريق .. شيئا نستطيع ان نلمحه ليس في كلمات سارتر « الطفل » وانما في كلمات سارتر « الشيخ » ، الفيلسوف الاديب المجرب الذي يقترب من نهاية عقده السادس .. « لقد تغيرت . وسأروي فيما بعد اية حوامض قرضت الشفافيات المشوهة التي كانت تسربلني ، ومتى وكيف قمت بتعلم العنف ، واكتشاف قبحي الذي كان لمدة طويلة مبدئي السلبي ، وحجر الكلس الذي ذوب فيه الطفل المدهش نفسه ـ وما هو السبب الذي دفعني لافكر بصورة نظامية ضد نفسي ، الى درجة ان اقيس بدهية فكرة ما بالاستياء الذي كانت تحدثه لي .

« لقد تفتت الوهم المتعلق بالماضي ، فالاستشهاد ، والخلاص ، والخلود ، كلها تتعطل ، ويسقط البناء منهدما ، والرب الذي كان مختبئا فيه قد حشرته في الاقبية وطردته ، ان الالحاد مشروع قاس وذو نفس طويل : واحسب اني دفعته حتى الذروة . انني ارى بوضوح، وقد زالت الغشاوة عن عيني ، وانا اعرف مهماتي واستحق بالتأكيد جائزة في الغيرة الوطنية ، انني منذ عشر سنوات تقريبا انسان يستيقظ ، انسان قد شفي من جنون طويل ، مر ، عذب ، وهو لا يصدق ذلك ، ولا يستطيع ان يتذكر ـ من غير ان يضحك ـ ضلاله وتشرده القديم ، ولا يدري بعد ماذا يفعل بحياته .. » .

واذا كنا نستطيع هنا ان نعرف او نحدد ما هو التغير الذي طرأ في حياة سارتر والذي سيرويه لنا فيما بعد ، فان صفحات الكتاب الذي بين ايدينا بمقدورها ان ترسم لنا ـ على الاقل ـ الخلفية التي يصدر عنها هذا التغير .. ومن هنا يصبح « الكلمات » كتابا هاما ورائعا في آن واحد ، هو هام في محتواه بقدر ما هو رائع في شكله وفي صياغته فعلى الرغم من قصر الفترة الزمنية التي يتناولها من عمر الكاتب فان صفحاته مع ذلك تلقي كثيرا من الضوء على المكونات الاولية لافكار سارتر وفلسفته ونظرته الى الحياة ، وهذا ما يعطيه اهمية خاصة بالنسبة لمن تستهويهم دراسة الوجودية الفرنسية التي يحمل الكاتب لواءها .

القاهرة — كمال عطية

البلد البعيد الذي تحب

مجموعة قصصية ذات نكهة جديدة للكاتبة

ديزي الامير

تصدر هذا الشهر